حياته

لم تكن حياة كولردج حافلة بالأحداث المثيرة ، إلا أن ما فيها من أحداث كان له عميق الأثر فى نفسه وفى تطوره الفكرى والروحى .

ولد صمويل تيلور كولردج فى ٢١ أكتوبر ١٧٧٢ فى قرية أترى سنت ميرى بمقاطعة ديفون بانجلترا . وكان أبوه قسيس هذه القرية وناظر مدرستها رجلا على قسط من العلم والاطلاع ، وإن كانت بعض تصرفاته تنم على شىء من السذاجة أحياناً . أما أمه فهى على حد قوله لم يكن لها تأثير كبير فى تكوين شخصيته . وقد ظهرت بشائر موهبته فى طفولته المبكرة : إذ كان عزوفاً عن اللعب ، ميالا إلى الانطواء على نفسه وإلى القراءة لا سيما قراءة قصص ألف ليلة وليلة ، محباً للاستطلاع وللتأمل والتفكير والأحلام . وقد عكف والده على تعليمه بالبيت ، وكان ذلك مصدر غبطة كبيرة له لأن صمويل كان أنجب أبنائه مع أنه كان أصغرهم سناً . ثم مات والده وهو فى التاسعة من عمره . وفى العاشرة أرسل إلى لندن لكى يلتحق بإحدى مدارسها الشهيرة . وهناك نشأت بينه وبين أحد زملائه تشارلز لام (الذى قدر له أن يصبح مثل كولردج من كتاب إنجلترا البارزين) صداقة متينة دامت العمر كله . وقد خلف لنا لام مقالا ينعى فيه موت كولردج ، ويستعيد فيه ذكريات الماضى ، فيصف لنا شخصية هذا الرجل العبقرى وهو لا يزال بعد تلميذاً بهذه المدرسة شاعراً واسع الاطلاع مفكراً يحاول سبر أغوار الدين وأسرار الفلسفة والميتافيزيقا . واستمرت دراسة كولردج فى هذا المعهد بدون انقطاع ، اللهم إلا من فترة وجيزة طرأت له فيها نزوة الاشتغال صبىّ حذّاء ولكن سرعان ما شفاه منها معلمه بالمدرسة . وفى سن التاسعة عشر ، بعد أن أتم دراسته بالمدرسة ، التحق بجامعة كمبردج ليدرس اللاهوت بقصد أن يصبح قسيساً . وفى كمبردج قضى وقتاً صاخباً باللهو والعبث ، إلا أنه أيضاً

درس فيها الرياضة والآداب الكلاسيكية ، وقام بقراءة واسعة هائلة وإن لم تكن بالقراءة المنظمة . وعرف عنه ولعه بالنقاش والجدل مع زملائه فكانت غرفته بالكلية ملتقى أصدقائه المحبين للجدل . وإبان إقامته فى كمبردج ظهر اهتمامه بالسياسة وبالتطورات السياسية فى تلك الفترة العصيبة من تاريخ أوربا — عصر الثورة الفرنسية ، وكان كولردج فى ذلك الوقت ممن يناهضون فكرة إعلان الحرب على فرنسا .

وفجأة فى أواخر عام ١٧٩٣ هجر كولردج الجامعة ورحل إلى لندن وليس لديه من المال ما يكفى لسد رمقه . فاضطرته الفاقة إلى الالتحاق بالجيش تحت اسم مستعار ، واشتغل جندياً ومكث فى الجيش أربعة أشهر لم يفد منها سواء من الناحية البدنية أم من ناحية التدريب والنظام وضبط النفس ، وإنما كان خلالها كسولا مهملا فى واجباته جاهلا بفنون الفروسية . ولا يزال الدافع الذى حدا بكولردج إلى هذه المخاطرة الغريبة سراً من الأسرار . فيقول البعض إنه اضطر إلى مغادرة كمبردج لأنه أصيب بنوبة من نوبات اليأس نتيجة استدانته مبلغاً كبيراً من المال لم يكن فى مقدوره سداده . ويقول البعض الآخر إنه لم يستطع المضى فى دراسته بكمبردج لأنه منى بالفشل فى غرامه الأول . ومهما كان السبب فقد توسط أخوه الأكبر لدى السلطات حتى سمحت له بالخروج من الجيش فى بداية عام ١٧٩٤ .

عاد كولردج إذن إلى كمبردج وإلى الدراسة والتحصيل . ولكنه حدث أن سافر إلى أكسفورد فى يونيو من هذا العام فى زيارة قصيرة لأحد أصدقائه الذين تخرجوا من نفس المدرسة ، فتعرف على روبرت صذى (الذى قدر له أيضاً أن يصبح من كتاب إنجلترا وشعرائها) وكان طالباً بجامعة أكسفورد حينئذ ، فكان لهذه المقابلة بينهما أثر حاسم فى حياة كولردج . لقد نشأت الصداقة بينهما فى التو ، ودعاه صذى لزيارته فى مدينة برستول أثناء العطلة الصيفية وفى برستول عرفه على أخت خطيبته ، « ساره فريكر » التى قدر لها أن تصبح زوج كولردج

فيما بعد ، وكان صذى يشبه كولردج فى أنه التحق بالجامعة لدراسة اللاهوت لكى يصبح قسيساً ، غير أن قراءته للمؤرخ الإنجليزى الشاك جبون زعزعت عقيدته الدينية . كذلك كان يؤمن بالمبادئ الجمهورية الثورية فى السياسة ، كما كان مغرماً بأعمال روسو وبآلام فرتر لجوته . وأغلب الظن أن صذى هو الذى أوحى إلى كولردج بفكرة البنتيسقراطية Pantisocracy فقد صادف أن قرأ صذى إحدى قصائد الشاعر الإنجليزى كولى التى يحلم فيها باعتزال الحياة الاجتماعية وبالمعيشة وسط الكتب فقط فى كوخ ناء بأمريكا ، فتحمس لهذه القصيدة وتمنى لو أمكنه تحقيق هذا الحلم الجميل . وسواء أكان مصدر هذه الفكرة هو صذى أم كولردج فقد تحمس كلاهما للفكرة حماساً بالغاً ، ولا سيما كولردج الذى أطلق عليها اسمها اليونانى هذا ، وتصور أن تحقيقها أمر هين ، فقد قرأ كتاب « العدالة السياسية » للفيلسوف الإنجليزى وليم جدوين ، فاقتنع بأنه من الممكن أن يصبح الإنسان كاملا . وأخذ الصديقان يدعوان إلى الفكرة ، ويحاولان ضم أصدقائهما إليهما . ويصف أحدهم — توماس بول — تفاصيل المشروع فى خطاب إلى صديق ، فيقول : إنهم كانوا ينوون أن يذهبوا فى جماعة تتألف من اثنى عشر رجلا واثنتى عشرة امرأة ، يعرف كل منهم طبع الآخر جيد المعرفة ، ويرحلوا إلى أمريكا حيث يقيمون مجتمعهم المثالى أو مدينتهم الفاضلة . وقرروا أنه يكفى لسد حاجاتهم جميعاً أن يعمل الرجال فى فلاحة الأرض ساعتين أو ثلاث ساعات كل يوم على الأكثر ، وأن يصرفوا وقت فراغهم أى ما تبقى من اليوم بعد هذه الساعات الثلاث فى القراءة والدراسة والجدل وفى تعليم أولادهم . وكان النساء سيقمن بتربية الأطفال وبالأعمال الأخرى التى تتناسب مع تكوينهن . إلا أنهن أيضاً كن سيقضين جل وقتهن فى تنمية عقولهن بالدرس والتحصيل . ويمكننا أن نصف البنتسقراطية بالإجمال بأنها نظام اجتماعى مثالى قائم على فكرة المساواة التامة وإنكار الملكية الفردية وتقديس الحياة الفكرية وحرية الرأى والعقيدة .

ولما كان من المقرر أن ترحل الجماعة فى إبريل من العام القادم لذا خطب كولردج «ساره» بقصد الزواج منها والرحيل معها إلى أمريكا . وفى سبتمبر ١٧٩٤ عاد كولردج إلى كمبردج وهناك ذاع نبأ مشروع البنتيسقراطية فحاول أستاذه أن يثنيه عن عزمه بلاجدوى وغادر كولردج الجامعة بلا عودة . وكانت مشكلته الكبرى هى كيفية جمع المال اللازم لتنفيذ المشروع . فباع بعض قصائده لأحد الناشرين نظير مبلغ زهيد ، وبدأ يلقى المحاضرات العامة فى شتى الموضوعات . ولكن لم يلبث أن أخذ حماسه للمشروع يخبو شيئاً فشيئاً لأسباب عدة ، منها أنه تبين أن صذى بدأ يحيد عن مبادئ البنتيسقراطية الأصلية إذ أعرب عن رغبته فى اصطحاب خادم معه ، وفى ذلك تناقض مع فكرة العدالة والمساواة المطلقة التى تنص عليها المبادىء . كذلك عزم صذى على اصطحاب أمه ، ولم يقبل كولردج فكرة أخذ الأمهات معهم لأنهن لا شك سيفسدن عقول الصغار بخزعبلات الدين ، وسيكون تأثيرهن منافياً لتعاليم الآباء التى ترمى إلى تربية الأطفال تربية عقلية بحتة . ثم أدخلت بعض التعديلات على المشروع ، إذ أقنع أحد أصدقاء صذى كولردج بأنه من الأصوب أن يجربوا هذا المجتمع المثالى فى إنجلترا قبل أن يرحلوا إلى أمريكا . واتفقت الجماعة على شراء مزرعة فى مقاطعة ويلز ، وعلى إدارتها على أسس تعاونية باعتبار أن ذلك خطوة أولى فى سبيل تحقيق البنتيسقراطية . ولكن ما لبث أن دب الخلاف بين كولردج وصذى . فقد علم كولردج أن صديقه ينوى إباحة الملكية الفردية فى مجتمعهم المثالى ، بل إنه قد وعد عمه بالعودة إلى الدراسة بالجامعة نظير معونة مادية يعطيها عمه له . وهكذا تبدد هذا الحلم الجميل ، وانتهت الصداقة بين كولردج وصذى ، تلك الصداقة التى أدت إلى هجرة كولردج لدراسته الجامعية وإلى زواجه من ساره فريكر التى لم يكن يحبها وإنما اضطر إلى الزواج منها بدافع الشرف فحسب . بعد ذلك أخذ كولردج يلقى المحاضرات العديدة فى السياسة مدافعاً عن الحريات الدستورية . كما أنه اشتغل واعظاً دينياً يدعو إلى مبدأ التوحيد فى المسيحية

بدلا من مبدأ الثالوث . وفى عام ١٧٩٦ أصدر مجلة ثقافية سياسية باسم « الحارس » كان يحررها برمتها تقريباً بنفسه ، ولذلك فلم تعمر طويلا ولم يصدر منها سوى عشرة أعداد .

ولعل أهم حدث فى حياة كولردج فى ذلك الوقت هو مقابلته للشاعر الشهير وليم وردزورث ونشأة الصداقة بينهما . لقد كانت صداقة فريدة من نوعها . فقد استأجر وردزورث بيتاً على بعد ثلاثة أميال من القرية التى كان يقيم فيها كولردج ، ولم تمض أيام على انتقال وردزورث وأخته . وروثى إلى بيتهما الجديد حتى كان كولردج يمضى معظم وقته معهما فى هذا البيت . إلا أن عوزه وفاقته نغصا عليه حياته بعض الوقت ، واضطراه إلى مراسلة الصحف أحياناً ، وإلى التفكير فى مشروعات عدة لم تسفر للأسف عن شىء . وعلى العموم لم يتمكن كولردج من المعيشة إلا بمساعدة بعض أصدقائه الذين قرروا فيما بينهم أن يتبرع له كل منهم بمبلغ خمسة جنيهات فى العام . ومع ذلك فقد اضطر فى نهاية الأمر إلى قبول وظيفة واعظ دينى يدعو إلى المذهب التوحيدى . وذهب فعلا إلى إحدى القرى لإلقاء خطبة تحت الاختبار ، إلا أن أحد المعجبين به الأثرياء توماس ودجود انتشله من هذا المصير ، إذ وقف عليه فى يناير ١٧٩٨ بالتعاون مع أخيه ، مبلغ مائة وخمسين جنيهاً فى العام طيلة حياته ، طالما هما فى حالة مادية تسمح لهما بذلك ، واشترطا عليه فقط أن يتفرغ للحياة الأدبية عامة ولكتابة الشعر ودراسة الفلسفة . فقضى كولردج هذا العام فى صحبة وردزورث وشقيقته النابهة ، ينظم الشعر ويتناقش معهما فى شتى المسائل الأدبية . وقد تغيرت آراء كولردج السياسية تغيراً كبيراً أثناء هذا العام ، فلم يعد يناصر الثورة الفرنسية ولو أنه لم يتحول إلى صف الحكومة الإنجليزية ولم يدافع عن سياسة الحرب ضد فرنسا . وفى أثناء هذا العام أيضاً (أى بين ١٧٩٧ و ١٧٩٨) كتب كولردج أجود شعره على الإطلاق مثل قصائد « كوبلاخان » و « الملاح العتيق » و « كريستابل » . وفى عام ١٧٩٨ أصدر كولردج بالتعاون مع وردزورث ديوانهما

المشهور « مقطوعات قصصية غنائية» — ذلك الديوان الذى لعب دوراً خطيراً فى تطور الشعر الإنجليزى ، مع أنه لم يصب نجاحاً فى بادئ الأمر ، وإنما قوبل بالتهكم والسخرية . وكان الغرض المباشر من نشر هذا الديوان جمع ما ما يكفى من المال للذهاب فى رحلة إلى ألمانيا .

رحل كولردج إلى ألمانيا فى سبتمبر ١٧٩٨ ومعه وردزورث وشقيقته . وكان يرمى إلى تعلم اللغة الألمانية ودراسة الأدب الألمانى ، بينما كان قصد وردزورث وشقيقته زيارة معالم ألمانيا . لذلك افترقا عند راتسبورج ، وتوجه كولردج إلى مدينة جوتنجن ، فالتحق بجامعتها وظل فيها عدة أشهر يدرس اللغويات ، ويتردد على محاضرات الأستاذ « بلومنباخ » فى علم الفسيولوجيا . كما أنه بدأ فى ذلك الوقت فى قراءة أعمال الفيلسوف الألمانى كنط ، ولو أنه لم يهتم بدراسة الميتافيزيقا والفلسفة بوجه خاص حينئذ . كذلك أخذ كولردج يجمع المادة اللازمة لوضع كتاب عن الأديب الفيلسوف ليسنج . ثم عاد كولردج إلى إنجلترا فى يوليو ١٧٩٩ مثقلا بالديون ، بعد أن أنفق مالا كثيراً أثناء رحلته ، ولا سيما فى شراء الكتب الفلسفية التى كان يزمع دراستها بعد عودته . وبدلا من أن يستقر إلى تأليف كتابه عن ليسنج حتى يتمكن من سداد ديونه ، كما كان ينوى ، نجده ينصرف كلية إلى دراسة الفلسفة ، ودراسة سبينوزا بوجه خاص . ثم بلغه نبأ كاذب عن مرض صديقه الشاعر وردزورث ، فعقد عزمه على زيارته فى التو فى منطقة البحيرات بشمال إنجلترا فقد اتخذ وردزورث مقامه فيها بعد عودته من ألمانيا . فقضى بعض الوقت مع وردزورث وشقيقته يجولون فى أنحاء هذه المنطقة الجميلة . وفى بيت وردزورث قابل كولردج « ساره هتشنشون » أخت خطيبة وردزورث ، وسرعان ما وقع فى غرامها ، واستمر حبه اليائس لها يعذبه سنين طويلة . ولما كان لزاماً عليه أن يحصل على المال لسداد ديونه انجرف أخيراً فى ميدان الصحافة ، فذهب إلى لندن واشتغل بتحرير المقال الإفتتاحى فى صحيفة A Morning Post فى ديسمبر ١٧٩٩ وكانت صحيفة متحررة تناهض الحكومة الإنجليزية وسياسة

الحرب ، كما كانت تناهض أتباع فرنسا . وكانت مقالاته جميعاً تدور حول السياسة الخارجية . ثم سئم كولردج حياة الصحافة وقرر اعتزالها فى مارس ١٨٠٠ . لقد كان يأمل أن يوفق بين عمل الصحافة بعد الظهر وبين إنتاجه الأدبى فى الصباح ، ولكنه تبين له استحالة هذا التوفيق ، فغادر لندن ، وبدلا من أن يكتب مؤلفه عن ليسنج اتفق مع إحدى دور النشر على ترجمة مسرحيات « فللنشتين » للشاعر الألمانى شيلر . فترجم مسرحيتين منها غير أنه لم يتمكن أبداً من ترجمة المسرحية الثالثة والأخيرة ، ولا من كتابة المقال النقدى عن شيلر الذى وعد الناشر بكتابته . وفى صيف ١٨٠٠ قرر كولردج الانتقال إلى منطقة البحيرات لكى يكون على مقربة من وردزورث .

وبعد انتقال كولردج إلى الشمال عادت العلاقة بينه وبين وردزورث إلى ما كانت عليه حينما كان وردزورث يقطن بالقرب منه ، فكانا يقضيان جل وقتهما معا ، يتناقشان فى شتى الموضوعات ، ويتبادلان الآراء فى الشعر والنقد . وكانا يقطعان مسافات طويلة مشيا على الأقدام ، ويجولان فى أنحاء هذا الإقليم الطبيعى الجميل ، ويتعرضان للبرد والصقيع والمطر . ولم يكن مناخ هذه المنطقة الرطب يلائم صحة كولردج ، لأنه كان يعانى من بعض آلام الروماتزم . لذلك لم ينصرم عام ١٨٠٠ حتى تدهورت صحته ، ومرض بالديستاريا ، وتورمت ركبتاه وأصابعه ، ولازمه المرض طوال عام ١٨٠١ تقريباً . وفى أثناء هذا المرض بدأ كولردج يتعاطى الأفيون لتسكين الألم الذى كان يعانيه . لقد قرأ فى إحدى المجلات الطبية عن تأثير هذا المخدر فى المرض الذى كان يشكو منه ، فقرر فى الحال أن يجرب هذا الدواء الجديد ، فكان تأثيره على حد قوله تأثير السحر أو المعجزات . غير أن تأثير هذا المخدر للأسف يتضاءل بالاستعمال فوجد كولردج نفسه يزيد من كمية الجرعة بالتدريج كل يوم حتى أصبح بمضى الوقت مدمناً لا يستطيع أن يستغنى عنه . وكثيراً ما دافع كولردج عن نفسه ضد من كانوا يتهمونه بضعف الخلق ويعيبون عليه عاداته السيئة ، قائلا

إنه لم ينشد الأفيون سعياً وراء الملذات الحسية ، بل تلافياً للألم الحاد الذى كان يؤرقه ويقض مضجعه . ولم يجعل كولردج من تعاطيه للأفيون سراً من الأسرار . وإنما كان يعلم ذلك عنه منذ البداية بعض أصدقائه المقربين إليه .

ولم يكن تعاطى الأفيون الوسيلة الوحيدة التى لجأ إليها كولردج لمقاومة آلام المرض . وإنما عمد إلى الاستبطان والتفكير الفلسفى فى المشكلات العويصة ، فوجد لهذا الضرب من النشاط الفكرى تأثيراً فى نفسه يحكى تأثير المخدر . لقد دفعه ألمه إلى محاولة استكهان طبيعة الألم السيكولوجية ، فيقول : « إننى أحتمل الألم بالشجاعة والصبر اللذين تتميز بهما المرأة . ولقد أصبحت أجابهه وأتأمل وجهه بهدوء وبرباطة جأش — إن جاز هذا التعبير — وأسأله عن كنهه ومصدره . » . ويكتب إلى أصدقائه قائلا إنه تشغله الآن القضايا الميتافيزيقية معظم الوقت ، وإنه لم يعد يقنع بالفلسفة التقليدية القائمة على أساس مذهب لوك ، كما أنه قضى على مذهب ديفيد هارتلى (ذلك الفيلسوف السيكولوجى الذى ذاع صيته فى القرن الثامن عشر فى إنجلترا وكانت له أهمية كبرى فى ذلك الوقت مع أنه قلما يذكر اسمه الآن) ، وتخلص من الحتمية التى يؤدى إليها هذا المذهب . فلم يعد يعتبر قانون تداعى المعانى أساس التفكير الإنسانى كما يؤمن هارتلى . ونجد كولردج فى هذه المرحلة من تطوره يقرأ للمتصوف جيوردانو برونو وتزداد معرفته بأعمال كنط . ووسط هذا الاهتمام المتزايد بالفلسفة وبالتفكير المجرد يدرك كولردج تماماً النزاع القائم فى نفسه بين الرغبة فى التفلسف وبين نداء الشعر ، ويأمل ألا تقتل الفلسفة الشعر فى نفسه . غير أن صحته تستمر فى التدهور وحالته النفسية تزداد سوءاً ، فنجده يهاجم الأوضاع الاجتماعية فى إنجلترا لأن الأديب فيها لا يستطيع أن يحصل على لقمة العيش بدون أن يسىء استعمال مواهبه ويضيعها . وتراه حائراً تخامره فكرة الهجرة إلى أمريكا مرة أخرى ، وتراوده أحياناً فكرة الرحيل إلى جنوب أوروبا بغية الدفء والمناخ الذى يلائم صحته .

ولعل أهم ما حدث لكولردج عام ١٨٠١ بالإضافة إلى مرضه هو تيقنه من فشل حياته الزوجية . لقد كتب إلى صدى يقول : « أما عن ساره فوا أسفاه . إن مزاجينا لا يتفقان . . . سأظل آمل أن النهاية ستكون سعيدة ! . . . ولكن إذا استمر عدم الوفاق بيننا وزاد حدة وعنفاً (الشيء الذى سيحدث بلا شك إذا قدر له أن يستمر) فحينئذ يكون انفصالى عنها أفضل لها ولأطفالى من أن تصبح أرملة ويصبح أولادى يتامى . . . . لقد قتلت موضوع الزواج بالتفكير المتأنى الدقيق ، فآمنت إيماناً عميقاً بأن رباط الزواج شيء لا يصح حله . » ولا نستطيع أن نجزم بالأسباب التى أدت بكولردج إلى هذه الكارثة فى حياته الزوجية . أهو غرامه بساره هتشنسون ؟ أم هو مزاج زوجه الصعب وغيرتها من دوروثى وردزورث ،أخت الشاعر التى كانت تفوقها ذكاء وشخصية ؟ لقد كانت مسز كولردج امرأة عادية ، ولا شك أنه خاب ظنها فى كولردج لأنه لم يصب النجاح السريع البارز الذى كانت تتوقعه له لضيق أفقها ولما لها من عقلية دنيوية ونظرة مادية . هذا فضلا عن أنها كانت تعتقد أن مظهر زوجها كان كثيراً ما يدعو إلى الضحك لأنه كان مهملا فى ثيابه . ولم تكن لتستطيع أن تتعاطف معه فى نشاطه الفكرى أو أن تدرك قيمة التفكير الفلسفى العميق الذى كان يستغرق زوجها . ولقد قالت عنها دوروثى وردزورث أن العيب الجوهرى فى شخصيتها هو حاجتها إلى الحساسية الكافية لأن تجلب السعادة إلى رجل مثل كولردج .

تغيب كولردج عن بيته وأسرته عدة أشهر (منذ نوفمبر ١٨٠١ حتى مارس ١٨٠٢) . قضى معظمها فى مدينة لندن وفى التنقل من بلد إلى آخر . وحينما عاد إلى زوجه فى مارس بدأ النزاع والشقاق بينهما من جديد ، وعاوده شقاؤه وضاعت آماله فى حياته الزوجية إلى الأبد . وفى الشهر التالى لعودته كتب كولردج إحدى قصائده الكبرى « نشيد الكآبة » ينعى فيها فقدانه القدرة على التمتع بجمال الطبيعة وسحرها ، وفقدانه روح الخيال الخلاق ، ويقول فيها إن عزاءه الوحيد

الآن أصبح فى التفكير المجرد وسبر أغوار المسائل الميتافيزيقية العويصة . وبعد فترة قصيرة من الهدوء والاستتباب فى حياته الزوجية قرر أن يرافق توماس ودجود (صديقه الثرى الذى وقف عليه مبلغ مائة وخمسين جنيهاً فى العام) فى رحلة دامت بضعة أسابيع كان يكتب فيها إلى زوجه خطابات لا تخلو من العطف والمودة ، ولو أن بعض هذه الخطابات لم تؤد إلى تحسين العلاقة بينهما . لقد كان منهمكاً فيها بتحليل مشاعره ، بحيث إنه ما طرأ بباله أبداً أن يكون لكلامه وقع ثقيل على أذنها أو تأثير عكس ما كان يرمى إليه . فنجده مثلا يقول لها فى أحد خطاباته : « سامحينى يا عزيزتى ساره فالله يعلم أننى أقولها بدون أى رغبة لدى فى جرح مشاعرك وبدون أى إحساس بالغرور عندى . سامحينى إذا قلت لك إنك أدنى منى نوعاً وكما فى الخبرات والجنس وفى المواهب الطبيعية العاطفية والعقلية . ولذلك فمن الحمق أن تتوقعى منى أن أرى الأشياء من خلال عينيك فأطرد أصدقائى من قلبى . ولكنه ليس من الحمق أن يكون لى أنا الحق فى أن أتوقع بل وأطلب منك أن تحاولى أن تشعرى بشىء من المحبة إزاء أولئك الذين هم فى نظرى جديرون بحبى وأن تحاولى أن تحسنى معاملتهم . »

وقضى كولردج معظم عام ١٨٠٣ هائماً على وجهه فى إنجلترا متنقلا من بيته فى الشمال إلى بيت صديقه الثرى ودجود وإلى مدينة لندن . وفى لندن صادف نجاحاً اجتماعياً رائعاً . فقد كانت طلاقته وموهبته الكلامية وحيويته من الأمور التى جعلت الناس تتسارع إلى دعوته إلى حفلاتهم واجتماعاتهم . ويقول عنه أحد الذين عرفوه فى هذه المرحلة من حياته « إن الدعوات تنهمر عليه إلى الذهاب إلى الحفلات – كما تنهمر على المغنى – لكى يطرب المدعوين بموهبته . » وفى ربيع ١٨٠٣ عاد كولردج إلى بيته وزوجه فعاد إليه مرضه وألزمه الفراش خمسة أشهر . ويبدو أنه هجر الشعر أو أن الشعر هجره فى هذه الفترة ، فنجده يكتب إلى أصدقائه قائلا : « لقد فطمت نفسى تماماً من عادة كتابة الشعر . . . بل أصبحت أجد تأليفه عملية شاقة مؤلمة . » وعكف على دراسة الفلسفة ، وكان

غرضه الأسمى كما يقول هو أن يدحض حجج المدرسة التجريبية من هوبز واوك إلى هيوم، وأن يهدم مدرسة تداعى المعانى من أساسها . وكان أعز أمل لديه أن يدوّن مذهبه الفلسفى فى مجلد ضخم . لقد كان يخشى ألا يتمكن من فعل ذلك وكان محقاً فى مخاوفه لأنه لم يقدر له أن يدونه حتى مماته . وفى هذه الفترة أيضاً نجده يفكر فى القيام بوضع مؤلفات عدة فى الأدب وفى غير الأدب . فيكتب إلى صذى يقترح عليه أن يتعاونا على تأليف تاريخ ثقافى لإنجلترا ، عبارة عن موسوعة فى تاريخ المعرفة بشتى فروعها فى إنجلترا . فلم تغب عن صذى استحالة تنفيذ هذا المشروع ، لا سيما وأنه كان يتحتم على كولردج وفق هذا المشروع أن يضع بمفرده مجلدات عديدة ! وصذى كان أدرى الناس بطبيعة كولردج وعدم قدرته على تنفيذ المشروعات . وغنى عن الذكر أن مشروع كولردج هذا لم يسفر عن شىء .

ولم تتحسن صحة كولردج كما كان يأمل ، فعقد العزم على الرحيل إلى جنوب أوربا . ولم يكن أمامه مجال كبير لاختيار البلد التى يسافر إليها بسبب حروب نابليون فقرر الذهاب إلى جزيرة مالطه ، وكانت لا تزال تابعة لبريطانيا فى ذلك الوقت . ومنذ بداية مرضه حتى الآن لم يتوقف كولردج جدياً عن تعاطى الأفيون ، فنجده يطلب من صديق له فى أحد خطاباته أن يحضر معه كمية وافرة من الأفيون لكى يأخذها معه إلى مالطة . وتمكن كولردج من الحصول على قرض من بعض أصدقائه لكى يسد به ديون زوجه ويجهز نفسه للرحلة . ثم حصل على خطابات توصية وتقديم إلى حاكم مالطه ، ورحل إلى الجزيرة فى ربيع عام ١٨٠٤ تاركاً راتبه السنوى لزوجه لكى تنفق منه أثناء غيابه عن وطنه .

واستطاع كولردج بفضل حديثه الشيق ومواهبه العقلية أن يحظى على إعجاب حاكم مالطه ، فمنحه إحدى الوظائف الحكومية بها . غير أن القيام بعمل منظم لم يكن يلائم طبيعة كولردج ، ولذلك لم ينصرم عام ١٨٠٤ إلا وهو متبرم بحياته فى مالطة متحرق شوقاً إلى العودة إلى وطنه مع أنه لم تكن لديه أية فكرة

واضحة عما كان سيصنعه عند عودته . ولا شك أن حياته الزوجية الفاشلة كانت من العوامل التى دفعته إلى هذا المنفى الذى اختاره بمحض إرادته ، إذ يكتب إلى زوجه قائلا : « يا إلهى ! لو لم يكن ذلك الذى يعلمه كلانا جيد العلم هو مصيرنا المحتوم لفضلت بكل سرور أن أبقى فى إنجلترا وأحيا حياة لا تتوفر فيها سوى الضرورات » . ولم يتمكن كولردج من إتمام أى إنتاج أدبى أثناء إقامته بمالطه . ومع ذلك فقد كان يلجأ دائماً إلى تدوين أفكاره وخواطره فى مذكراته التى تشغل مجلدات عديدة ، والتى لم يبدأ نشرها إلا عام ١٩٥٧ بفضل جهود الأستاذة الكندية كاثلين كوبرن . وحينما أعرب كولردج إلى حاكم مالطه عن رغبته فى اعتزال وظيفته أخيراً لم يتمكن الحاكم من إخلاء طرفه إلا بعد أن عاد من يحل محله ، وقد استغرق ذلك مدة طويلة بسبب الحرب . هذا فضلا عن أنه اضطر إلى العودة إلى إنجلترا عن طريق إيطاليا فاستغرقت رحلته وقتاً أطول بكثير مما كان يتوقع ، ومما كان يتوقعه له أصدقاؤه فى إنجلترا ، وذلك بسبب إغلاق الطرق أثناء الحرب . لقد اضطر إلى تجشم الصعاب والمخاطرة بين الحين والآخر ووصل أخيراً إلى إنجلترا فى صيف عام ١٨٠٦ ، أى بعد غيبة عن وطنه دامت عامين ونصف عام ، وحيداً مريضاً مفلساً . ولم يذهب إلى الشمال حيث بيته وزوجه وأولاده ، وإنما مكث فى لندن مع بعض أصدقائه قائلا إنه يبحث عن مورد رزق له يعوض عليه المبلغ الكبير الذى اضطر إلى إنفاقه فى الرحلة ، بينما السبب الحقيقى الذى جعله يؤجل عودته إلى بيته مدة دامت حوالى شهرين هو أنه لم يكن يرغب فى استئناف المعيشة مع زوجه ، فجعل يتأخر ويسوف حتى لم يعد فى مقدوره المزيد من التسويف ، وحتى تبين أصدقاؤه حقيقة دوافعه وانتهى به الأمر بعد الكثير من اللأى والتردد إلى الانفصال عن زوجه فى آخر عام ١٨٠٦ ، ومنذ هذا التاريخ تقريباً حتى وفاته عام ١٨٣٤ عاش كولردج معظم حياته بعيداً عنها ، إما وحيداً وإما ضيفاً على أصدقائه الذين كانوا يشفقون عليه .

وفى يناير عام ١٨٠٨ اضطرته الفاقة والديون المتراكمة إلى طرق سبيل المحاضرات العامة . فبدأ أول سلسلة من المحاضرات العامة له فى الأدب فى مدينة لندن . وكان موضوع السلسلة أصول الشعر ممثلة فى شعر شكسبير وغيره من شعراء الإنجليز مثل سبنسر وميلتون ودريدن وبوب وفى الشعر الإنجليزى المعاصر . وحاول أن يعرض فى هذه المحاضرات آراءه فى الذوق والخيال والعاطفة وفى مصادر المتعة الفنية . ولم تبدأ السلسلة بداية طيبة لمرضه ولتأثير المخدر عليه مما جعله يتخلف عن بعض المحاضرات ، ولكنه مضى يلقيها بشىء من الانتظام حتى يونيو من نفس العام . وللأسف لا نعلم ما قاله كولردج فى هذه السلسة ، فقد كان كعادته يرتجل محاضراته ، ولم تصل إلينا أى مذكرات دونها من استمع إليها . وبعد أن أتم كولردج هذه السلسلة عاد إلى منطقة البحيرات حيث استقر صديقه وردزورث بعد زواجه ومعه أخته دوروثى . وكانت ساره هتشنسون ، أخت زوجه تقيم معهم فى ذلك الوقت . فعاش كولردج مع وردزورث وأسرته معظم الوقت حتى ربيع عام ١٨١٠ . وقام فى هذه الفترة بمحاولة جادة للتحرر من عبودية المخدر فعرض نفسه على أحد الأطباء وأخبره الطبيب أنه سيهلك إذا انقطع نهائياً عن تعاطى المخدر ، ونصحه بخفض كمية ما يتناوله إلى السدس . فعمل بنصيحة الطبيب وظهرت آثار التحسن فى صحته وحالته النفسية بوضوح بعد وقت قصير ، وبدأ أصدقاؤه يتحدثون عن تحسن حاله واستعادوا ثقتهم فى قدرته على الإنتاج مرة أخرى بعد أن كادوا يفقدون الأمل فيه . ونجده يكتب إلى أحد أصدقائه قائلا إنه حتى الآن كان ينثر أفكاره وآراءه فى شتى الموضوعات فى حديثه مع الغير بدون عناية بها أو إحساس بالمسئولية إزاءها وكانت النتيجة أنه كثيراً ما استولى عليها الغير ونشرها دون أن ينسبها إلى صاحبها . ولقد آن الأوان حقاً أن يدون آراءه وينشرها باسمه . وهكذا فى عام ١٨٠٩ بدأ يصدر صحيفة أسبوعية كان يحررها بمفرده أطلق عليها اسم «الصديق» ، صحيفة ترمى إلى مناقشة مبادئ السياسة والعدالة والأخلاق والذوق . ويقول فى البرنامج الرسمى لهذه الصحيفة :

« إن غاية الصديق بصورة عامة مجملة هى الدفاع عن تلك الحقائق والحقوق التى أساسها العناصر النبيلة الدائمة فى الطبيعة البشرية ضد النزوات والمودات واللذات التى إما تعتمد على أسباب عارضة زائلة وإما يبتغيها الناس لدوافع دنيا . أما عن الموضوعات الرئيسية التى ستعالجها مقالاتى فهى كما يلى : الأساس الحقيقى الوحيد للأخلاق أو الفضيلة مميزين بين الفضيلة أو الخير وبين مجرد المنفعة ، مصدر الدوافع الخلقية ونموها مميزين بينها و بين الدوافع الخارجية أو المباشرة . تعريف طبيعة الذوق (بالنسبة إلى الحكم عامة وإلى العبقرية) وتوضيح هذه الطبيعة بالنماذج والتطبيق ، وتحديد ضرورة اعتماد الذوق على الدوافع والعادات الخلقية . وتحت هذه النقطة سأضمن لب ما قلته فى المحاضرات العامة عن أبرز الشعراء الإنجليز وذلك أثناء توضيحى للمبادئ العامة فى الشعر ، هذا بالإضافة إلى أننى سأنوه بالعلاقة بين الفنون الجميلة (المعمار وفن تنظيم الحدائق والزى والموسيقى والرسم والشعر) و بالمبادئ التى تشترك فيها هذه الفنون . لفت الأنظار إلى موضوعات جديدة فى لغتنا يحق لنا أن نعجب بها . والتعريف بالآداب السويدية والدنمركية والألمانية والإيطالية ، حاضرها وماضيها ، على نحو لا يتحقق فى المؤلفات الفرنسية الشائعة ولم يسبق تقديمه إلى القارئ الإنجليزى (وقد أضيف إلى هذه الآداب الآداب الإسبانية والبرتغالية والفرنسية التى سيكتب لى أحد أصدقائى تعريفاً بها) . شخصيات حقيقية قابلتها فى حياتى ، وقصص وتجارب وليدة حياتى وأسفارى . . . إلخ طالما توضح هذه قوانين أخلاقية عامة ولا علاقة مباشرة لها بالسياسة الحالية أو بشخصيات معينة . التربية بأوسع مدلولاتها ، التربية الفردية والوطنية . منابع السلوى لمن حلت عليهم الكوارث أو ابتلاهم المرض أو الكآبة الفكرية ، وذلك عن طريق حسن استعمال العقل والخيال والحس الخلقى . . . وأقصد بالكآبة الفكرية بوجه خاص الشك أو عدم الإيمان بأن العالم تحكمه قوى خالقية ، والشك فى الأسس والقضايا التى تقوم عليها آمال الإنسان الدينية »

وكان كولردج كعادته غير عملى فى تصرفاته بشأن هذه الصحيفة ، فقرر شراء المطبعة والورق نفسه مما اضطره إلى اقتراض مبلغ كبير من المال . وكانت الصحيفة تطبع فى بلدة غير البلدة التى كان يعيش فيها كولردج ، بلدة تبعد بدورها كثيراً عن البلدة التى كان يتم فيها التوزيع . ولم يكن لديه دائماً الكمية الكافية من الورق ، وغير ذلك من الصعاب العديدة . ومع ذلك فقد تمكن من إصدار أعداد كثيرة من الصحيفة . ثم غادرت ساره هتشنسون بيت وردزورث وكانت بمثابة الوحى الذى يدفعه إلى العمل . ولعل رحيلها كان من الأسباب التى جعلته يبطل إصدار الصحيفة إذ اضطر إلى إيقافها فى مارس ١٨١٠ دون أن يعالج إلا جزءاً ضئيلا من البرنامج الموسوعى الذى وعد به القارئ . وكانت خسارته فى هذا المشروع تربو على المائتى جنيه .

عاد كولردج إلى بيته بعد فشل مشروع « الصديق » ومكث فيه وقتاً قصيراً غادره بعدئذ إلى لندن . وفى لندن استضافه أحد أصدقائه بعض الوقت ولكنهما حدث أن تشاجرا وتهور الصديق فقال لكولردج إن وردزورث كان محقاً حين حذره منه ومن عاداته السيئة وحين شكا له من المضايقات التى سببتها لأسرته إقامته معهم ، وإنه أخطأ حين لم يصغ إلى وردزورث حينئذ . فجاء قول هذا الصديق صدمة أليمة فى نفس كولردج . لقد خاب ظنه فى صديقه وردزورث الذى كان يجله ويقدسه ويعتبره مثال الصديق الكامل خلال الأربعة عشر عاماً الماضية . وانقطعت الصلة بين كولردج ووردزورث شهوراً عدة ، ولم يتمكن أحد من الصلح بينهما إلا بعد مضى عام . غير أن العلاقة بينهما لم تعد إلى ما كانت عليه من قبل . ترك كولردج منزل هذا الصديق الذى تشاجر معه وأقام بمفرده فى أحد الفنادق فترة من الزمن ولكن لم يستمر على هذه الحال طويلا إذ دعاه صديق يدعى مورجان للإقامة معه وأسرته فى بيته فقبل كولردج الدعوة ومكث معه لمدة عام ونصف .

وبدا له فى أول الأمر أن الصحافة هى الميدان الوحيد الذى لا يزال مفتوحاً

أمامه فاشتغل في صحيفة تسمى Courier وكان يكتب فيها تعليقات قصيرة على الأحداث السياسية الجارية الداخلية والخارجية . غير أنه سرعان ما ضاق ذرعاً بهذه الوظيفة وتركها فى خريف ١٨١١ وقرر أن يعود إلى إلقاء المحاضرات العامة فألقى ثانى سلسلة له فى الفترة ما بين نوفمبر ١٨١١ ويناير ١٨١٢ ، وأصابت هذه السلسلة قدراً من النجاح إذ حضرها شخصيات بارزة فى الحياة الأدبية بلندن مثل الشاعرين صمويل رودجرز وبيرون . وقد وصل إلينا ملخص ما قاله كولردج فى هذه المحاضرات ، ذلك لأن أحد أصدقائه قد كلف بعضهم بالذهاب إليها بانتظام بقصد اختزالها حتى لا تضيع تماماً كما ضاعت السلسلة الأولى . وكان موضوع هذه السلسلة الذى أعلن عنه هو شكسبير وملتون والمبادئ العامة للشعر كما تتضح فى شعرهما ، وتطبيق هذه المبادئ بوصفها أسسا للنقد على الأعمال المعروفة للشعراء الإنجليز المحدثين والمعاصرين . ولقد وفق كولردج إلى حد ما فى تغطية هذه المساحة الهائلة اللهم إلا إذا استثنينا نتاج الشعراء المعاصرين لأنه لم يشر إليه فى هذه المحاضرات . ومما هو جدير بالذكر أن أحد المستمعين إليه وكان ألمانيا أتى إليه بعد فراغه من إلقاء المحاضرة عن مسرحية شكسبير « روميو وجولييت» وأراه كتاب « محاضرات فى فن المسرح وفى الأدب » للناقد الألمانى فلهلم شليجل ويتضمن محاضراته التى ألقاها عن الأدب المسرحى فى فينا عام ١٨٠٨ . وبين له مواضع الشبه الكثيرة التى استرعت انتباهه بين آراء شليجل والآراء التى عبر عنها كولردج فى محاضرته . وقال له إنه لو لم يظهر الكتاب قبل مغادرته ألمانيا مباشرة ولو لم يكن واثقاً من أنه لا يوجد فى إنجلترا كلها غير النسختين اللتين فى حوزته هو لجزم بأن كولردج قرأ هذا الكتاب . فأجابه كولردج قائلا إنه لم يسمع بهذه المحاضرات ولم يقرأ لشليجل غير ترجمته لبعض الشعر الإسبانى . ورد أحد الحاضرين قائلا إنه سبق أن استمع إلى السلسلة الأولى من محاضرات كولردج التى ألقاها فى عام ١٨٠٨ (أى فى نفس العام الذى ألقى شليجل فيه محاضراته فى مدينة فينا) وأنه يذكر أن

كولردج عبر عن نفس الآراء التي قال بها اليوم فيما يتعلق بمسرحية روميو وجوليت. ويجدر بنا أن نتذكر هذه القصة لأنه غالباً ما اتهم المؤرخون كولردج بنقل آراء شليجل دون أن يعترف بدينه عليه .

وتلت هذه السلسلة من المحاضرات سلسلة أخرى استمرت من ١٩ مايو إلى ٥ يونيو عام ١٨١٢ تحدث كولردج فيها عن طبيعة المسرحية ، وقارن بين المسرح الكلاسيكي والمسرح الرومانتيكي ، وفصل في الحديث في آخر محاضرة فيها عن مسرحية عطيل . وللأسف لم يصل إلينا من هذه السلسلة سوى البرنامج الرسمي الذي نشره كولردج ، والذي يعلن فيه أنه ينوى « إلقاء سلسلة من ست محاضرات عن الأدب المسرحي عند اليونان والفرنسيين والإنجليز والإسبان مع الإشارة بوجه خاص إلى أعمال شكسبير » ويبدو تأثير شليجل واضحاً في هذا البرنامج . وألقى كولردج بعدها سلسلة أخرى ما بين عامي ١٨١٢ و ١٨١٣ عن الشعر والنقد لم يتبق منها غير برنامجها ، ومن البرنامج نرى أنها كانت تدور حول الفرق بين الكلاسيكية والرومانتيكية بوجه عام وشعر شكسبير وملتون . وفي نوفمبر ١٨١٢ قرر أخو توماس ودجود أن يتوقف عن دفع حصته من الراتب الشهرى لكولردج وذلك لسوء حالته المالية . ومع ذلك فلم يؤثر هذا القرار في وضع كولردج ، إذ قبلت مسرحيته « التوبة » للتمثيل على أحد المسارح الكبرى بلندن في يناير ١٨١٣ وصادفت حسن قبول الجمهور مما در عليه بعض الربح .

وفي أكتوبر ١٨١٣ ذهب كولردج إلى مدينة بريستول ليلقى سلسلة أخرى من المحاضرات فيها . وكان موضوع هذه السلسلة أعمال شكسبير بدأها بعرض عام للمميزات العامة لنتاج شكسبير ، وعالج فيها بعض النواحي الخاصة من فنه المسرحي مثل بناء مسرحيتى هاملت وماكبث . وحلل شخصيات هاملت وماكبث وليدى ماكبث . كما تحدث عن مسرحيتى عطيل وقصة من أقاصيص الشتاء . وحلل شخصيتى عطيل وياجو والشخصيات النسائية في أعمال شكسبير بوجه عام . كذلك نجده يتحدث عن المسرحيات التاريخية

بصفة عامة . ويفصل القول فى مسرحيتى الملك رتشارد الثانى والملك رتشارد الثالث ، وينقد الملهاة عند شكسبير وشخصياته الكوميدية وشخصية فولستاف بالذات . ويختم كولردج هذه السلسلة بمحاضرة عن التعليم ومذاهبه . وتلت هذه السلسلة سلسلة أخرى عن الشاعر ملتون بوجه خاص وعن الذوق الفنى ، كما أنه قام فيها بتحليل قصة دون كيشوت لسيرفانتيس . وقد أصابه المرض بعد هذه السلسلة الأخيرة لكثرة ما كان يتعاطى من المخدر ، واشتدت عليه وطأة المرض حتى أن البعض كان يخشى عليه من الانتحار . ثم أقنعه أحد أصدقائه بضرورة استشارة الأطباء . هذا فضلا عن أن كولردج بمحض اختياره عين رجلا فى وظيفة رقيب له ينام فى غرفته ويصاحبه أينما ذهب لكى يحول بينه وبين شراء المخدر وتعاطيه . وقد تعذب كولردج فى ذلك الوقت عذاباً قاسياً وأحس بأنه يهوى إلى أعماق الجحيم . ومع ذلك كان يخدع الرقيب أحياناً ؛ ولم يمتنع تماماً عن تعاطى المخدر . وإنما اكتفى بخفض مقدار الجرعة التى كان يتناولها كل يوم . وفى عام ١٨١٥ انتقل إلى منزل صديقه مورجان بلندن وهدأت حاله بعض الشيء ، فتمكن من العودة إلى النشاط الأدبى . وطبع قصائده مجمعة فى جزئين . وكان ينوى كتابة مقدمة لديوانه هذا . إلا أن هذه المقدمة تطورت وتحورت حتى أخذت آخر الأمر شكل كتابه المعروف « سيرة أدبية » كذلك بدأ يكتب مسرحية خفيفة باسم « زابوليا » .

وفى عام ١٨١٦ عرض كولردج نفسه على طبيب ممتاز . فأخبره أن حالته ليست باليائسة . ولكنه تلزمه الملاحظة الطبية الدقيقة والمعيشة فى جو هادئ ، واقترح عليه أن يعيش مع أحد زملائه ويدعى جلمان وأوصى جلمان به خيراً . فذهب كولردج إلى جلمان فى نفس العام . وما أن رآه جلمان حتى وقع فى شراك حديثه وبلاغته . وقد ظل كولردج مقيماً فى بيت جلمان يعيش كأنه أحد أفراد أسرته حتى وفاته عام ١٨٣٤ . وقبل أن ينتقل كولردج إلى بيت جلمان نجده يكتب إليه طالباً منه أن يعامله معاملة من يعانى ضرباً من الجنون ، فيقول

له : « إنك لن تسمعنى أقول غير الحق لأن ما تعودت عليه من قبل جعلنى غير قادر على الكذب . غير أنى لن أجرؤ أن أعدك بأنه لن يكون فى مقدورى أن أكذب عليك فيما يتعلق بهذا السم المقيت — اللهم إلا إذا لاحظتنى ملاحظة دقيقة . فحتى الآن لم تمض علىّ ستون ساعة كاملة لم أذق فيها هذا المخدر ، وإن كنت لم أتناول إلا كميات ضئيلة نسبياً فى الأسبوع الماضى . ومع ذلك فإننى أومن إيماناً تاماً بأنه لا داعى للقلق إلا فى الأسبوع الأول فقط . وفى هذا الأسبوع أرجوك ألا تسمح لى ، بل إنه يتحتم عليك ألا تسمح لى بمغادرة بيتك إلا فى صحبتك . هذا هو ما يتحتم فعله سواء باللياقة أو بدونها . كما أنه يجب على مساعدك وخدمك أن يتلقوا أوامر مطلقة منك فيما يخص هذا الموضوع . » وقد أحبه جلمان وأكرمه ، وعامله كأنه من ذويه ، وعنى به عناية فائقة حتى أن هذه المرحلة من حياة كولردج التى قضاها فى صحبته كانت من أطيب فترات حياته وأهدئها . وعلى الرغم مما كان يشكو منه فإن إنتاجه فيها لم يكن بالضئيل .

فى ١٨١٧ ظهرت له « سيرة أدبية » و « أوراق الحكمة » . وليس كتاب « سيرة أدبية » سيرة أو ترجمة بالمعنى المفهوم ، إذ لا نجد فيه عرضاً تاريخياً للأحداث التى صادفت الأديب الشاعر الفيلسوف فى حياته سواء أكانت هذه أحداثاً خارجية أم باطنة ، فلا يوضح كولردج لنا كيفية نشأته وتطوره أو كيفية تطوره الفكرى بشكل منظم أو فى سياق زمنى معين . وإنما نجده يستطرد من موضوع إلى موضوع ، وينتقل من فكرة إلى أخرى انتقالا سريعاً . ونظرة خاطفة إلى عناوين بعض الفصول التى ينقسم إليها المجلدان اللذان يتألف منهما الكتاب كفيلة بأن تعطى القارئ فكرة عن طريقة تنظيمه ، بل عن إحدى الصفات التى تتميز بها عقلية هذا الرجل . فعنوان الفصل الأول هو « الدوافع التى جعلت الكاتب يضع هذا المؤلف — كيفية استقبال مؤلفات الكاتب الأولى — ترويض ذوقه فى المدرسة — أثر الكتاب المعاصرين فى عقول الشباب — مقطوعات الشاعر بولز الغنائية — مقارنة بين الشعراء السابقين لبوب واللاحقين

له . » وعنوان الفصل الثانى «اعتقاد الناس أن العباقرة سريعو الغضب ــ التحقق من صحة هذا الاعتقاد بالنظر إلى الحقائق ــ أسباب هذه التهمة ومناسباتها ــ مدى الظلم فى هذه التهمة » ؛ وموضوع الفصل الثالث ما فعله النقاد إزاء الكاتب، ومبادئ النقد الحديث وأعمال صديقه الشاعر الكاتب صذى . والفصل الرابع عن ديوان « مقطوعات قصصية غنائية » الذى أصدره بالتعاون مع الشاعر وردزورث وعن قصائد وردزورث الأولى وعن الفرق بين ما يسميه « التوهم» و « الخيال » وأهمية هذا الفرق بالنسبة للفنون الجميلة . أما الفصل الخامس فينتقل بنا إلى « قانون تداعى المعانى ــ تتبع تاريخه من أرسطو إلى هارتلى .» ويستمر فى مناقشة هذا الموضوع فى الفصل التالى مبيناً مدى خطأ النواحى التى يختلف فيها هارتلى عن أرسطو . ويظل كولردج مع هارتلى فى الفصل السابع ، وتشغله فكرة الثنائية فى الفلسفة فيناقشها عند ديكارت وسبينوزا وايبنتز فى الفصل الثامن ، ويوضح مدى صدق آراء هؤلاء أو كذبها فى تفسير عملية تداعى المعانى . وينقلنا المؤلف فى الفصل التاسع إلى ميدان التصوف والفلسفة الألمانية من كنط إلى فخته وشيلنج.وحينما نصل إلى الفصل العاشر نجد هذا العنوان «فصل : استطراد قصصى عبارة عن تقديم للفصل الخاص بطبيعة القوى الخيالية أو التشكيلية وكيفية تكوينها ــ عن التزمت واستخدام التعبيرات المتزمتة ــ نصيحة إلى الكتاب الناشئين فيما يتعلق بالنشر ــ حكايات مختلفة فى حياة المؤلف الأدبية وتطور آرائه فى الدين والسياسة . » وعنوان الفصل الحادى عشر «نصيحة حارة لأولئك الذين يودون فى مقتبل العمر أن يصبحوا كتاباً» ، والثانى عشر عنوانه « فصل فى تحذير القارئ فيما يتعلق بقراءة الفصل التالى أو تركه » . بعد هذه المقدمة الطويلة يأتى الفصل الثالث عشر وعنوانه « فى الخيال أو القوة التشكيلية . » والغريب أننا نجد كولردج بدلا من أن يعالج الموضوع معالجة متأنية مفصلة ينهى الفصل سريعاً بخطاب يدعى أنه أتاه من أحد القراء وينصحه فيه بإرجاء مناقشة هذا الموضوع حتى يكتب مؤلفه

الضخم فى الفلسفة والذى خصص له سنين عدة من حياته . وفى الفصل التالى مباشرة يعالج كولردج موضوعات فى النقد الأدبى الصرف فيحاول تعريف الشعر والقصيدة . ومنذ هذا الفصل وحتى نهاية الكتاب فى الفصل الثانى والعشرين يركز كولردج اهتمامه فى ميدان النقد الأدبى النظرى والعملى بوجه خاص ، وينقد آراء وردزورث النقدية وإنتاجه الإنشائى .

هذا هو المنهج الذى يتبعه المؤلف فى كتابه الشهير ، أو الأحرى أن نقول إن هذا هو الأسلوب اللامنهجى الذى كتبه به . فمع أن كولردج كان ممن يهتمون بفكرة المنهج فى التفكير والتعبير (بل إنه كما سنرى كتب عدة مقالات هامة تدرس مشكلة المنهج) إلا أنه كان دائماً يستطرد من موضوع إلى موضوع وليس له مؤلف نثرى واحد فى طول الكتاب وله شكل الكتاب فينقسم قسمة منهجية إلى فصول كل فصل منها ينبع مما سبق ويؤدى إلى ما يلى . ورغم هذه المآخذ فلكتاب « سيرة أدبية » قيمة هامة فى تاريخ النقد الأدبى بإنجلترا . بل إن هذا الكتاب بالذات هو الذى وصفه أكثر من ناقد أو مؤرخ للنقد بأنه أعظم ما كتب فى النقد الأدبى الإنجليزى . وليس فى هذا الحكم أى مبالغة فى الواقع ، فحينما يتفرغ كولردج إلى مهمة النقد الأدبى فى هذا الكتاب (كما هى الحال فى الفصول الأخيرة منه والتى ينقد فيها وردزورث) نجده يعرض لنا آراءه النظرية أو مبادئه فى وضوح لا مزيد عليه . فهو يستقى مبادئه من تجاربه المباشرة بوصفه شاعراً وقارئاً لمختلف الأعمال الأدبية فى ثقافات ولغات متباينة . ثم يطبق هذه المبادئ بدقة على النتاج الشعرى الذى أمامه تطبيق رجل ذى شعور مرهف وحساسية فنية بالغة وليس تطبيقاً آلياً . لهذا جاءت كتاباته فى هذا الصدد آية فى النقد نظريه وعمليه . هذا فضلا عن أنه إبان استطراداته التى لا حصر لها كثيراً ما يدلى بقول عابر عميق الدلالة يضىء نواحى فى المشكلة ما كانت لتراها العين من قبل ، وكثيراً ما يربط بين ظاهرة أدبية معينة وبين حقيقة سيكولوجية أو فلسفية لم ينتبه إليها غيره من النقاد .

وفى نفس العام الذى ظهرت فيه « سيرة أدبية » نشرت له مسرحية « زابوليا » وفى العام التالى ظهر له « مقال فى المنهج » ، وفيه يدرس فكرة المنهج ومعناه وضرورة تحققه حتى فى العمل الأدبى . وظهرت له أيضاً طبعة جديدة للمقالات التى نشرها فى صحيفة « الصديق » مجمعة ومحورة بعض الشىء . هذا بالإضافة إلى قيامه بإلقاء سلسلة جديدة من المحاضرات العامة فى الأدب صادفت نجاحاً كبيراً . وأهم ما تتصف به هذه السلسلة هى تعدد الموضوعات التى تحدث عنها هذا الناقد الكبير وتنوعها فى الأربع عشرة محاضرة التى تتألف منها . فقد بدأها بمحاضرة عن الحياة الفكرية والأدبية والاجتماعية لأوربا فى الفترة ما بين القرنين الثامن والخامس عشر . ثم تحدث فى الثانية عن الشعر القصصى المشترك فى إنجلترا وألمانيا وشمال فرنسا . وبعد ذلك انتقل إلى الشاعرين الإنجليزين تشوسر وسبنسر وعقد مقارنة بينهما وبين الشعراء الإيطاليين مثل بترارك وأريوسطو ثم تكلم بالتفصيل عن أعمال شكسبير وتناول كتاب المسرحية فى عصر الملكة إليزابيث عامة . ثم خصص محاضرة للكاتب الإسبانى سيرفانتيس مؤلف « دون كيشوت » ، وتحدث بعدها عن الفكاهة فى الأدب ، فنقد الكاتب الفرنسى رابليه والكاتبين الإنجليزيين سويفت وستيرن ، وفرق بين المصطلحات النقدية التى تستخدم بدون تمييز فى الحديث عن الأدب الفكاهى . وتحدث بعد ذلك عن دانتى والشاعرين الإنجليزيين ملتون ودان ، وعن ألف ليلة وليلة واستخدام العناصر الخارقة فى الشعر . واختتم السلسلة بمحاضرتين إحداهما عن « اللون والصوت والشكل فى الطبيعة وعلاقتها بالفنون الجميلة كالشعر والموسيقى والرسم والنحت والمعمار ، والعلاقة بين الشعر والفلسفة وبينهما معا والحاسة الخلقية » والأخرى عن النثر الإنجليزى بوجه عام وعن تدهور اللغة الإنجليزية منذ القرن الثامن عشر وعن الأصول التى يجب اتباعها للوصول إلى مستوى لائق فى الكتابة والخطابة والحديث . هذه هى الموضوعات التى قصد كولردج إلى الحديث عنها فى هذه السلسلة من المحاضرات . وهى إن دلت على شىء فإنما تدل على سعة

اطلاع الناقد وثقافته ورحابة أفقه .

وفى نهاية هذا العام بدأ سلسلة أخرى من المحاضرات . ولم يكن موضوعها أدبياً هذه المرة ، وإنما كانت فى تاريخ الفلسفة واستمرت حتى ربيع عام ١٨١٩ إلا أن سوء حظ كولردج لم يفارقه طويلا ، إذ أصيب ناشره بالإفلاس فلم يربح شيئاً من مسرحية « زابوليا » و « أوراق الحكمة » و « مواعظ دنيوية » و « سيرة أدبية » و « الصديق » ، واضطرته الفاقة إلى الاشتغال بالصحافة الأدبية ثانياً بعض الوقت . ومع ذلك فنستطيع أن نقول إن كولردج كان سعيداً فى حياته مع جلمان وأسرته ، وسرعان ما اهتم جلمان بنشاط كولردج فى الفكر والفلسفة فنجده أحياناً يعينه على تدوين ما كان يمليه عليه كولردج من آراء فى الفلسفة. كذلك تمكن كولردج أثناء إقامته معه من تقليل كمية المخدر التى كان يتعاطاها إلى الحد الأدنى الذى تتطلبه حالته الصحية. إذ كان المرض يتردد عليه من وقت إلى آخر.

وانتحب كولردج عضواً فى الجمعية الأدبية الملكية عام ١٨٢٤ ، وكانت العضوية تتطلب إلقاء محاضرة فى العام فى الجمعية ، وكان جزاؤها مائة جنيه . فألقى كولردج محاضرة عن مسرحية « بروميثيوس » للكاتب اليونانى القديم ايسكيلوس ، ولكنه لم يلق محاضرات أخرى فى الأعوام التالية . ومنذ عام ١٨٢٤ ركز كولردج جهوده فى ميدان الفلسفة والدين فظهر له عام ١٨٢٥ كتاب « عون على التأمل » الذى جلب له شهرة ومكانة فى الأوساط الدينية . وقد اعتبر كولردج كتابه هذا جزءاً من مذهب فلسفى شامل كان يصرف كل وقته فى التفكير فيه . وكان يسمى هذا المذهب بعمله الأكبر لأنه تنبأ بأنه سيحدث « ثورة فيما كان الناس يسمونه الفلسفة أو الميتافيزيقا فى إنجلترا وفرنسا منذ سيادة المذهب الآلى » . وغرضه الأسمى من هذا المذهب تبرير الديانة المسيحية القائمة على عقيدة الثالوث المقدس التى تتضمنها فكرة الله ، وتفسير أصل الشر فى الوجود . إلا أن كولردج توفى قبل أن يتم تدوين مذهبه وقبل أن يحقق الحلم الذى كان يحلم به سنين طوالا .

وقد قدر لكولردج ولصديقه الشاعر وردزورث أن يعيدا شطراً من تجارب شبابهما فالتقيا ثانياً عام ١٨٢٨ وذهبا معا فى رحلة إلى بلجيكا وألمانيا وهولندا . وفى مدينة بون قابلهما عدد كبير من أدباء ألمانيا مثل نيبور وشليجل . فقد كان كولردج ووردزورث فى ذلك الوقت من أشهر أدباء إنجلترا ، وأصبح بيت كولردج فى لندن منذ عام ١٨٢٤ ملتقى معظم أدباء العاصمة فى أمسيات الخميس .

وأخذت صحة كولردج تتدهور منذ عام ١٨٣٠ فلزم غرفته بأعلى بيت جلمان طوال الوقت تقريباً ، فكان يتمشى فيها أحياناً معظم اليوم ، وأحياناً أخرى كان يقضى اليوم بأكمله فى الفراش . وفى ١٩ يوليو ١٨٣٤ أصابته نوبة مفاجئة من المرض أدت إلى وفاته فى الخامس والعشرين . وتبين من الفحص الطبى بعد وفاته أن معظم آلامه كان مصدرها تضخم فى قلبه . وقد نعاه صديقه القديم منذ أيام المدرسة تشارلز لام (الذى لم ينقض العام عليه إلا وهو فى قبره أيضاً) فقال : «إن روحه العزيزة العظيمة تتردد علىّ طول الوقت . . . وإننى لم أر شبيهاً له ، بل ربما لن يرى العالم شبيهاً له أبداً . » أما وردزورث فقد كتب هو أيضاً يقول إن كولردج كان أروع شخصية عرفها فى حياته : « لقد كان ذهنه حاضراً معى دائماً على الرغم من أننى لم أره إلا نادراً خلال العشرين عاماً الماضية . »

ويذهب بعض النقاد والمؤرخين إلى تقسيم حياة كولردج إلى ثلاثة مراحل وليست الواحدة منها بالطبع منفصلة تمام الانفصال عن الأخرى . وهى أولا مرحلة الشعر التى تنتهى حوالى عام ١٧٩٨ ، وهى المرحلة التى كان كولردج مهتماً فيها بأمور الشعر أكثر من غيرها ، وفيها أيضاً كتب قصائده التى خلدت اسمه وضمنت له مكانة مرموقة بين كبار الشعراء الإنجليز — قصائد أشهرها قصيدة « الملاح العتيق » و « رؤية كبلاخان » و « كريستابل » . أما المرحلة الوسطى من حياته والتى تنتهى عام ١٨١٨ تقريباً فيمكن تسميتها بمرحلة النقد

الأدبى . وفيها نضب معين الشعر عند كولردج أو كاد . واشتغل بإلقاء المحاضرات العامة فى شتى الموضوعات الأدبية ، وفيها أيضاً ظهر كتابه النقدى الهام « سيرة أدبية » . والمرحلة الثالثة والأخيرة هى مرحلة الفلسفة أو بالأحرى مرحلة الدين ، وتبدأ بالمحاضرات العامة التى ألقاها فى تاريخ الفلسفة . ولم ينشر كولردج فيها سوى كتابه « عون على التأمل » الذى كان يعتبره مجرد جزء ضئيل من النتاج الضخم الذى كان سيتضمن مذهبه الفلسفى برمته . وقد مات كولردج دون أن يدوّن هذا المذهب . وطلب فى الوصية التى تركها من جوزيف هنرى جرين ، وكان أحد أتباعه ومريديه ، أن ينسق نواحى هذا المذهب ويطورها وبالاختصار أن يلم شعث فلسفته الدينية . فقضى جرين حوالى الثلاثين عاماً فى هذه المهمة الشاقة ، وخلف بعد وفاته مخطوطاً يدور حول جزء من هذه الفلسفة . وقد نشر هذا المخطوط فيما بعد فى مجلدين كبيرين تحت عنوان « الفلسفة الروحية : قائمة على أساس تعاليم المرحوم صموئيل تيلور كولردج . »

ولا غرابة فى أن نجد أحد أتباع كولردج يكرس حوالى الثلاثين عاماً من عمره فى تطوير أفكار أستاذه . فقد كان لكولردج عميق الأثر فى الغير ، وكان لحديثه وقع يشبه السحر فى أتباعه ومريديه وكل من استمع إليه . بل لقد كان له تأثير كبير فى عصره ولا سيما فى الجيل الجديد . ويجدر بنا أن نختم هذه القصة المختصرة لحياة كولردج — تلك الحياة التى تتضمن الفشل والألم والمرض والضعف العميق كما تتضمن العبقرية وشتى عناصر الخلود — يجدر بنا أن نختمها بكلمات قالها فيه رجل كان يمثل الجيل الجديد فى ذلك الوقت ، رجل هو أيضاً أحد عباقرة الفكر الغربى : جون ستيوارت ميل . وعلى الرغم من أن ميل يمثل اتجاهاً فكرياً يعارض اتجاه كولردج تمام المعارضة إلا أننا نجده يقول عنه هذه الكلمات « إن اسم كولردج هو أحد أسماء الإنجليز القلائل الذين يبدو أن الناس ستذكرهم أكثر مما ستذكر غيرهم فى المستقبل . وسوف ترمز أسماؤهم إلى أمور ستزداد خطراً بمضى الزمان وبظهور ما خفى من العوامل التى تتكون منها عقلية العصر . . .

فلا يوجد من ساهم أكثر منه فى تشكيل آراء كل من يمكن وصفه بأنه ذو آراء بين الشباب فى هذا العصر . ويشبه كولردج بنتام فى أن تأثيره يتعدى بكثير تلك الدائرة من الناس الذين يشاركونه معتقداته الدينية وآراءه الفلسفية. لقد كان هو الموقظ الأكبر لروح الفلسفة فى هذا البلد ، وذلك فى حدود الآراء التقليدية . ويشبه كولردج بنتام أيضاً فى أنه كان شاكاً كبيراً فى كل ما كان يقبله الغير ، وليس الشاك عدواً بالضرورة . لقد أصبحنا نتساءل نتيجة لتأثير بنتام أكثر من غيره عن مدى « صدق » الآراء المتوارثة المقبولة . ونتيجة لتأثير كولردج أصبحنا نتساءل عن « معنى » هذا الرأى أو ذاك . »

وفيما يلى سنتحدث فقط عن كولردج الناقد وكولردج الفيلسوف . أما كولردج الشاعر فهو موضوع يصعب التوفيق بينه وسلسلة عن نوابغ « الفكر » الغربى . هذا فضلا عن أن الحديث عن شعره بالعربية ليس بالأمر الهين (نظراً لاعتماده إلى حد بعيد على عناصر لغوية تصعب ترجمتها) ، ولا هو بالأمر المستحب لأن روائع قصائده لم تنقل إلى العربية حتّى الآن . وليس من الحكمة أن نكتب عن نتاج شاعر أجنبى للقارئ العربى دون أن تكون نصوص هذا الشاعر فى متناول يده . لهذا آثرنا أن نرجئ الحديث عن شعر كولردج إلى فرصة أخرى حينما نضع كتاباً خاصاً بكولردج الشاعر نترجم فيه روائع قصائده قبل أن نتناولها بالنقد والتحليل — الشيء الذى يضيق عنه مجال هذا الكتاب .